نظرات في النفس والحياة

—

لاروشفوكولد — ليوباردي — شوبنهور

— ١ —

ان علم النفس من العلوم الحديثة ولكن وصف النفس الإنسانية ومحاولة كشف مجاهلها وخباياها أمر قديم عالجه الشعراء والكتاب في كل قوم ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التي بلغها سيجموند فرويد وأمثاله وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص في الصراحة. ولا نظن أن أديباً أو مفكراً أحق النفس الإنسانية من تطلعه الى غرائب أمورها أو الأمور المألوفة التي هي في منزلة الغرائب لانزوائها في ظلمات النسيان كما رأت النفس في ذلك النسيان مأرباً لها . ولكن تقصيها بتذكيرها علم وفهم. وأمل بعض ذوي الفهم والزكانة، يرى في فهم النفس، نزعاتها وخواطرها، سبيل رقيها وتخلصها من شوائبها وربما غالوا في أثر الفهم في العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطاع جنيه من ثمرات أثر لطف الفهم في لطافة الحس والنفس ورقتهما . ولكن مما لا ريب فيه أن جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحاني وهو مصدر شر في ذاته بما يؤدي إليه من بلادة الطبع والامعان في قسوته والاسترسال في حمقه. ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس – على سبيل التفكير والتأمل لا على طريقة القصص في التصوير – لاروشفوكولد النبيل الفرنسي وليوباردي النبيل الإيطالي وشوبنهور الفيلسوف الألماني ولكل منهم نظرات صائبة وكانت في حياة كل منهم عوامل أدت الى التفكير في النفس والصراحة في القول والى الالمام بمكنونات النفوس ومعروضاتها من غرائز ونزعات وصفات . فقد سخط الأول على حكومة أمته وضرب بسهم في حرب الفروند وجرح في حصار باريس ونفي الى الريف . فكان عائشاً بين المؤامرين ، وخالط أناساً من طبائع مختلفة ودرس أطماعهم وأطماع نفسه ولعل نفيه الى الريف أعطاه فرصة وفراغاً كي يعيد على فكره ما وعاه من طبائع الناس في حياته العملية وما وصل اليه علمه من دسائس رجال القصر الملكي ونسائه ودسائسهم وحبهم وبغضهم ويحبون ويبغضون وكل ذلك كان مادة يستمد منها نظراته . أما الثاني وهو

ليوباردي فقد كان معاصراً لشوبنهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سنّاً وكان من أسرة نبيلة فقيرة . وقد أنهك نفسه وجنى على صحته بالاسراف في القراءة والاطلاع حتى صار يعد حجة في الأدب على حداثة سنه. وقد منع له أبوه بعد تمنع شديد وتأبّ كثير أن يرحل الى المدن الايطالية الكبيرة وأن يعاشر الناس ولم تكن إيطاليا قد وحّدت بعد بل كانت تتحكم في دويلاتها حكومات رجعية تقوم التجسس والدسائس والتلفيق فبدا له ما يبدو للرجل المفرط في الفطانة من طبائع النـاس لأنه درس نفوس الناس في كتب الأدب حتى امتلأ وصار لا يستطيع لاعتلاله أن يجاريهم ، ولا أن يعافيهم لأنه لم يتعوّد من صغره أن يألف تلك الطبائع كي يهوّن عليه بعض المكروه منها اذ أنه كان كالمحجوز في بيت أبيه. وكل هذه الاسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس ومنافاتها التي تغالط فيها .

وامّا شوبنهور فقد رحل أجداده من هولانده الى ألمانيا وصاروا من أهلها وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجراً مثله وأرسله في رحلة الى فرنسا ثم الى انجلترة. وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين في حياتهم الاجتماعية ومغالاة الانجليز في ذلك الزمن في مراعاة العرف والتقاليد. ولعلّ هذه المقارنة هيأت للفتى دراسة طبائع النفوس في حالي تبذلها واحتشامها. وقد ورث عن أبيه حدّة في الطبع كما ورث عن أمه الميل الى دراسة النفوس اذ كانت أمه أديبة قصصية مفكرة . وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها وقد شجعه جوته كبير شعراء وأدباء الألمان كما شجعه فاجنر الموسيقي وغيرهما. وكان غزير الاطلاع لم يكتف بالآداب الاوربية بل درس الفلسفة الشرقية ولا سيما الهندية كما درس عقائد الهنود . وكان لا يحجم عن البحث في دخائل نفسه كما يبحث دخائل نفوس الناس . وفيما يلي بعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها .

من نظرات لاروشفوكولد

(١) بعض الناس اذا مات كان احساس النـاس بافتقاده أعظم من احساسهم بالحزن عليه ، وبعضهم اذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من احساسهم بافتقاده. ويريد افتقاده للانتفاع به . والحزن على حالك لا يكون على قدر الانتفاع به بل على قدر الائتناس به والراحة في مخالطته. وفي هذا الباب استثناء ولا كالا ستثناء . مثل ذلك حزن من لا عائل له غير المفقود ومن انقطعت عنه الاسباب والحيل ووسائل كسب الرزق ، وحزن أمثال هذا إنما يكون حزناً على أنفسهم لا على المفقود إلاّ اذا كان مما يرجى للائتناس بعشرته ولطف أماليه في الحياة .

(٢) أكثر الناس لهم فضائل خفيــة لا تظهر الا بالتجربة وفي حالات مرتبة لتلك الفضائل فهم مثل الأعشاب الطبيــة التي تظهر فضائل طبّها بالتجربة وفي حالات خاصة — وهذا صحيح، ويجوز أن يقال في كل إنسان فإنك قد تعرف إنسانا لاخير فيه ولا فضل له فاذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهشك فتلج في انكاره لأنه لا يتفق وما تعرف من طباعه التي جبل عليهـا وما ذلك الانكار إلا لأن المفـكر ينسى أن النفس الانسانية مستقر كل فضل وان غاب، وقرارة كل نقص وان وصب، وانما يلبسها من هذا وذاك في أكثر الاحايين ما اعتادته وسهل عليها إيراده وعمله.

(٣) قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها كما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الـكثير منها أو كما قد يفخر مـواقع الشهوات بقدرته عليها وعا فقر منها، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذي يدفع الشر بشر أعظم. وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلا الحسود فانه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد فاذا افتخر حمل ما ظهر منه على سبب آخر غير الحسد فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ.

(٤) الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدّين الذي تدفعه كي تعود فتستدين فتجد من يقرضك. وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضا واجب الأداء وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر. وهذا من السخر الـكثير الذي نجده في نظرات هذا المفكر. ولك ان ترفض هذا الرأي في حالات. ولكن ينبغي لك الاعتراف بأنه يصدق في أكثر الناس لأن النفس طبعت على الأثرة وهي تتخلى عن أثرتها اذا تخلت، لأنها تجد أو تأمل ان تجد مسرة ونفعا والمسرة نفع أيضا. ولعله يعني أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل إذ ان بعض الناس قد يعترف بجميل لم يُصْنَع معه رغبة في الحث عليه واستمحاله وتَمَنِّيًا لأوجه الخير من الناس

(٥) بعض فضل أهل الفضـل مجروح ثقيل كما ان عيوب بعض النـاس ونقائصهم قد تستملح وتستلطف فتغتفر وما ذلك إلا لأن ظاهر المرء مفضل لدى النـاس على حقيقتـه وأسلوبه في ملاطفتهم ومعاشرتهم مُقَدَّم على فضله.

(٦) لولا مخادعة الناس بعضهم بعضاً ما استطاع الناس ان يعاشر بعضهم بعضاً. وهذا صحيح. ومن أجل ذلك قد يكره النـاس من لا ينخدع لهم بلباقة أو يدعي الانخداع في أمور كثيرة. هذا إلاّ اذا كان انخداعه دليلاً على البلاهة فيرون انه لا فضل له في ذلك الانخداع وإنه خليق بالهزء والاحتقار.

(٧) بعض الناس لاتظهر مهارتهم ولا يظهر فضلهم إلا إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق وإلا إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهينة بأناقة محبوبة تنم في حُسن

مطالبهم بما هو فوق ذلك . ومن أجل صحة هذا الرأي قد تعجب لنجاح أناس في الحياة نجاحاً لا يتفق مع عظم قدره وقلة ما يعرفون . أما قول الناس إن الخيبة في الأمر العظيم أعظم من النجاح في الأمر الهين، فقد يكون صحيحاً مشجعاً على محاولة عظائم الأمور ولكن أكثر الناس يهمهم النجاح في الحياة ولا يستطيعون ان يسيغوا الخيبة .

(٨) قد يفعل الناس الخير رغبة في التستر وراءه كي يعملوا الشر آمنين. فليس عملهم الخير في هذه الحالات من حبهم للخير . وهذا مخز لاذع ولكنه حقيقة مشهودة .

(٩) الكسل والكبر يحملان أكثر الناس على الميل الى اعتقاد النقص في غيرهم من غير بحث أو دليل — وهناك أسباب أخرى لهذا الميل منها ان الناس ترى إن ما ينقص من قدر غيرهم يزيد في قدرهم . ومنها معرفتهم أن النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها ، وبين الاحتمال والحقيقة وبين الجواز والوقوع خطوة في نظرهم لا تكلفهم تعباً ولا نصباً . ومن الأسباب أيضاً إن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل الى حيوان أو جماد إذا لم يكن انساناً وكانت لهذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين وقد وصفها سيجموند فرويد في كتاب الطوطم والطابو أو المقدس والمحرم .

(١٠) إذا اعترف انسان بخطئه فكثيراً ما يكون ذلك رغبة في إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل اعجاب الناس لا حباً للصواب واقتناعاً به أو قد تقنعه المنفعة المرجوة . وإلا بقي على عماه لا يدرك وجه الخطأ ولا يستطيع أن يقنعه دليل منطقي . ومما يسهل هذه الغفلة عن الخطأ النفسي ان النفس كما قال سيجموند فرويد في كتاب العلل النفسية في الحياة اليومية تستطيع ان تنسى ما ترى نسيانه من أمرها زمناً، فاذا لم يكن سبيل الى ذلك النسيان ورأت في الاعتراف بالخطأ فضلاً وتقدماً لدى الناس وإعجاباً، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة .

(١١) بعض العظماء ليس من المستطاع الاعجاب بعظمتهم إلا على بعد كالصور الفنية قد لا يستطاع ادراك جمالها الفني إلا إذا ابتعدت عنها . وهذا تشبيه بديع لأن دقائق الألوان والخطوط وتفاصيلها قد تعوق عن إدراك القدرة الفنية التي بها استطاع الراسم رسمها . ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية. فانك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء فاذا نزلت الى البر وجدت الذباب والأقذار والوحل وما هو أشد على النفس من ذلك . والظاهر ان مؤلفي كتب سير العظماء والمشهورين في هذا العصر يخالفون هذا الرأي ويرون انه يستعصي إدراك عمل العظيم وعلم فيه إلا إذا عرض في مباذله أو نقائصه عرضاً تاماً . فهم يحاولون الوصول الى أعماق

نفسه ووعيه الباطن . متناسين وصف سيجموند فرويد للوعي الباطن ولعلّ في عملهم هذا أيضاً شيئاً من الحسد والانتقام من غير ان يشعروا به كحسد القبائل البدائية التي في كتاب الطوطم والطابو والأقوام الذين كانوا في عمل تقديس ملكهم الجديد يرأون به ان يمسّ بأيديهم لأنه مقدس فكانوا يمسونه بأطراف قضبان . لكن هذا المسّ المقدس كان يتحول من غير ان يفطنوا الى ضرب قد يؤدي بحياة الملك حسداً له على منزلته وما بلغ من جلالة المُلك . ومن نظرات ليوباردي ما يلي :

(١) الخادع الماهر هو الذي لا يظن ان كل الناس يسهل خداعهم على كل حال بل يعرف ان من الناس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية الخادع ويكشف أمره . اما الخادع غير اللبق فإنه يستسهل خداع الناس فلا يتخذ أهبته لاتقان الخداع . ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون الخادع مخدوعاً . وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الأبله مضحكاً وخداع الساذج مكشوفاً لجميع الناس الا صاحبه فهو وحده المخدوع به . على أن للمسألة وجهاً آخر وهو ان نجاح الخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب ، بل على رغبة الناس في أن ينخدعوا . وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة فالغرور قد يؤدي بصاحبه الى احتقار كفاية الخادع فلا يراه ينهض له بخداع متقن . واعتقاد الصدق وسلامة النية في الخادع قد يعمي عن خداعه . والرغبة في الائتناس بالخادع قد تسهل له اتقان خداعه . والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر الحاذر منه . ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه وقد يخيب الذكي اللبق في خداع من هو أقل منه فطنة

(٢) كثير من الناس يسيئون اليك ثم يأبون أن تقابل الاساءة بمثلها . وهذا شائع حتى أن بعضهم ينسى اساءته اليك ويرى من اللؤم أن تتذكرها ومن النذالة أن تتألم بسببها ومن الحقد أن لا تقبلها بصدر رحب . فإذا لم تفعل عد المسيء نفسه مساء اليه وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطاتهم في أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاءون

(٣) بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معروفون بالنبل والكرم والشرف. وذلك لأنهم لم يقابلهم في حياتهم ما يضطرهم الى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم ولكنهم لو أحرجوا وأخرجوا الى ذلك التخلي لاستطاعوا أن يبذوا الأوغاد واللؤماء في لؤمهم. فهؤلاء نبلاء النفوس، لأنهم ليسوا في حاجة لأن يكونوا لؤماء وهذا الرأي يذكرنا قول البحتري :

إذا أُحرجتَ ذا كرم تخطى اليك ببعض أخلاق اللئام

(٤) عرفت طفلاً كان يقول إذا لم تجب أمه طلبه وإذا منعته من شيء : «آه . ماما الآن

تحب الخبث والعناد . أو ماما مولعة بالشر » ولو فطن الناس الى أحكامهم التي يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل فاذا مدحنا انسان واسترضانا وكنا نمده قبل ذلك وغداً، عدنا نقول أنه ليس بوغد الى الحد الذي كنا نظن أو انه عرف الحق فرجع اليه والرجوع الى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة . الى آخر ما يكون من أمثال ذلك

(٥) ان صاحب النقص لا يكون خليقاً بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم في ذلك إلاّ إذا بالغ في تكلف ضده ، كالشيخ الذي يتكلف أخلاق الفتيان وطباعهم وعاداتهم وهيئتهم . أو كالفقير الذي يحاكي الاغنياء أو كالجاهل الذي يظهر بمظهر العالم المتكلم أو كالريفي الذي يحاول أن يقنع مجالسه انه متقن عادات أهل الحضر وانه منهم حذوك النعل بالنعل . وهذا يصدق أيضاً في تكلف اخفاء العيوب الجثمانية بما لا يخفيها بل يزيدها وضوحاً ونماً عنها

(٦) كثير من الناس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخير من غير كلفة أو مؤونة . ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لانسان اعتماداً على أن تعففه أو زهده أو حياءه أو قناعته أو شيئاً من أمثال كل ذلك يمنعه من قبول ما يعرضون عليه من المعونة فيكتفي بشكرهم ويمدحهم لدى الناس وان يذيع انهم من أهل الخير . فاذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول ، تغير لونهم وتلجلجوا في الحديث وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث ، وانما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس الى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها وانما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة . ان ذلك سعى الى خير وهذا إلى طعام

(٧) من الغريب انه في أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذي يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة فتراهم يضحكون ويقولون فلان رجل طيب — على نياته — وهم يريدون انه أبله — أليس هذا ما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير وسلامة النية أدلة على البله وان عكس ذلك دليل على الفطنة فهم يكشفون عن سريرتهم وسريرة الناس من حيث لا يعلمون .

(٨) أفراد الناس في الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة في الكون : كل ذرة تقاوم وتضغط على ما يليها من الذرات فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل في الذرات البعيدة وهذه تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل فاذا بطلت مقاومة ذرة في مكان ما انجذبت جميع الذرات من كل ناحية الى ذلك المكان فتسحق الذرة التي ابطلت مقاومتها وتحل غيرها مكانها وهكذا الناس في الحياة .

(٩) ان من عاشر الناس واشترك في حوادث حياتهم كثيراً ما يرى فيها ما لو كتب قصة عده القارىء مبالغة من نسج الخيال الجامح وأبى أن يصدق أنها من حوادث حياتهم، ولذلك قيل ان الحياة قد تكون أغرب من الخيال وقارىء تلك القصة قد يعدها نابية عن أصول الفن الذي يرخص في الخيال المهذب القريب من المعقول ويقول انها تعدت الخيال القريب المعقول وما هي الا قطعة من الحياة. وهذا يدل على أن تناقض اخلاق النفس أكثر في الواقع مما نظن. ومن أجل ذلك قال كاتب حديث وهو مرست موام ان مهارة القصصي في تقليم الحقيقة وتنسيقها وفي المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفاً يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة ويفسر اجتماعهما ويلطف من حالات النفوس وشذوذاتها غير المألوفة. ومن نظرات شوبنهور ما يلي:

(١) كثيراً ما ينطق الانسان بأقوال قد تغمره معرفة الناس لها. ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلاً للهزء والسخر. وهذا صحيح لأن الانسان بطبعه حيوان معجبٌ بنفسه. ولكنه قد يكون مغرماً بالظهور بين الناس — وهذا نوع آخر من الاعجاب بالنفس — فيؤدي به حب الظهور الى أن يجعل نفسه أضحوكة، إذا لم يجد سبيلاً آخر الى الظهور.

(٢) قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر، لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا اهانة فيها ولا إستعلاء إنسان على إنسان. أما الظلم أو الاهانة فانها دليل على ظهور إنسان على إنسان بالهوان وحده أو بالقوة أو بالمكر والحيلة فتشعر بالمذلة والنقص وتدعو الى التفكير في الانتقام وتزيد حقيقة الاهانة والظلم في الذهن حتى لا تطاق. وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف أضعاف ما في ذلك الظلم أو الاهانة من المضرة. وقد يؤدي انتقامه الى ضياع حياته وهو يردد قول المشهور (عليّ وعلى أعدائي يا رب) ثم هو قد لا يلتذ الانتقام وان فاز به بل قد يجد له مرارة وحسرة.

(٣) كثيراً ما يكون تجسس إنسان على انسان لمعرفة أسراره سببه الحسد أو الملل والسأم. فهو قد يحسد إذ يعتقد ان انساناً نال من أطايب الحياة وملذاتها أو ما يعده المتجسس ملذات وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله في خلواته وجلواته وكثيراً ما تكون الضجة التي يدعي فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد.

(٤) في بعض الأحايين نود ان يحدث أمر ونود ان لا يحدث وأن لا يكون فتجتمع

في النفس رغبتان متناقضتان في وقت واحد . فمثلاً اذا كان لا بدّ ان تؤدي اختباراً في أمر من أمور الحياة كي نصير ظافرين مسرورين ذوي الرغبة في الظفر والمسرة أغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا ان نود لو تأخر موعد الاختبار فاذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كأننا نحس بحسرة وأسف . فسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن، وأسف لتأخر ميعاد النجاح والفوز بما نريد . وكثيراً ما يتوهم الناس ان اجتماع الضدين في النفس في وقت واحد أمر محال وهو ليس كذلك وقد فسر فرويد هذه الاحاسيس الثنائية المزدوجة في كتاب الطوطم والطابو أي المقدّس والمحرّم ، ووصفها عند الأقوام البدائيين .

(٥) لا يستطيع الانسان ان يعرف مقدار ما في نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب إلاّ إذا أتيحت له فرصة لاختبار نفسه . وقد تظهر في بعض النفوس قوًى كانت كامنة وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفية إذا ظهرت وإنما مثل الانسان أمام نفسه مثل الناظر الى بحيرة هادئة مستقرة كالمرآة ليس بها موج، فلا يستطيع الرائي ان يدرس عظم أمواجها التي تحاول أن تهشم الصخور وذلك اذا هبت عليها الأعاصير . وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجالدتها ومناهضتها وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدي شجاعة في الأمور اليومية الصغيرة ولا تتصف خبرته من وصف شجاعته . فاذا اختبرته الخطوب والمصائب ذلّ وضعف .

(٦) في أكثر لغات العالم اصطلح الناس على ان الصفات الذائعة بينهم صفات احتقار فيقولون هذا أمر شائع وعمومي ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف . ويقولون فلان من العامة ومن الدهماء الى آخر ما هناك من المترادفات . وهذا الاصطلاح في اللغات دليل واعتراف منهم ان الفضل غير شائع بينهم بل يتفرد به الآحاد وانهم إنما يشتركون في النقص .

(٧) بُعد مكان الشيء يصغّر من حجمه ويخفي معايبه . وهذا مثل العدسة التي تصغّر أحجام الأشياء . إنما العدسة التي تكبّر الاحجام فانها تكبّر ما خفي من العيوب . وماضي الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن سيئاته . أمّا الزمن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية . لأن الشيء الصغير يبدو كبيراً اذا كان قريباً حتى أنه قد يحجب عن النظر ما هو أكبر منه حجماً وأبعد مكاناً . ومن أجل ذلك تبدو

متاعب الحياة اليومية شاقة عظيمة خطيرة فتشغلنا وتثير قلقنا وأحاديثنا المختلفة الى أقصى حدٍّ ودرجة . ولكن اذا حملها الزمن في تياره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وهمت عليه .

(٨) الإنسان يتشيع ما دُرِّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه . وكثير من الناس يدربون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل وينزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة في شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضيها . فإن التجار من أصحاب الدكاكين ينزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلاً والسطو على المنازل للسرقة ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة . فاذا اتهمت أحدهم بالسرقة شق عليه ذلك مع أنه قد يغش المشتري في الثمن أو صنف البضاعة فيكون سارقاً من غير شك . ولكنه لا يعد نفسه سارقاً بل يرى أنه منزه عن السرقة . وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم في أحوال الحياة المختلفة . وشبيهٌ بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور وكذلك الجبن .

(٩) الأمل هو تحول الرغبة في حدوث شيء الى توقع حدوثه حتى لقد يكون التوقع قريباً منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة في الآلف أو في مئات الآلاف كما في توقع الكسب من أوراق اليانصيب .

(١٠) قد نرى أشجاراً على بعد فنعجب لجمالها فاذا اقتربنا منها وجدناها شيئاً مألوفاً لا كما صوّرت لنا . وهذا مثل سعادة أكثر الناس فاذا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها فاذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها او أكثر بهجتها لما في حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات فإن السعداء غير معفون من هذه الامور بل يشاركون الناس فيها .

(١١) من أسباب خطئنا في الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة . فمثلاً نرى الكرم : فننسب إليهم النزاهة والشرف والنبل وننسى أنها قد تجتمع وقد لا تجتمع ، ونرى الكذب : فننسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة وقد لا تجتمع .

ع . ش